باب

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

۞ وقولِ الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧].

وقولِه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

وقولِه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وقولِه تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ =

= أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ الآية [البقرة:١٦٥].

وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وكَفَر بما يُعبَدُ مِن دونِ الله حَرُمَ مالُه ودمُه، وحِسابُه على الله»[1]، وشرحُ هذه الترجمةِ ما بعدَها من الأبواب.

فيه أكبرُ المسائلِ وأَهمُّها: وهي تفسيرُ التَّوحيدِ، وتفسيرُ الشهادةِ، وبيَّنها بأُمورٍ واضحةٍ:

منها: آيةُ الإسراءِ: بَيَّنَ فيها الردَّ على المشركينَ الَّذين يَدْعونَ الصالحينَ؛ ففيها بَيانُ أَن هذا هو الشِّركُ الأكبرُ.

ومنها: آيةُ براءةَ: بيَّن فيها أَنَّ أَهلَ الكتاب اتَّخَذُوا أَحبارَهم ورُهبانَهم أَرباباً من دُونِ الله، وبيَّنَ أَنهم لم يُؤْمَروا إلَّا بأَنْ يَعبُدُوا إلهاً واحداً، مع أَنَّ تَفْسيرَها لا إِشكالَ فيه: طاعةُ العلماءِ والعُبَّاد في غير المعصيةِ، لا دُعاؤُهم إيَّاهم. =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٢٣).

= ومنها: قولُ الخليل ـ عليه السلامُ ـ للكُفَّار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فاستَثنَى من المعبودِينَ ربَّه، وذَكَرَ ـ سبحانه ـ أَنَّ هذه البراءةَ وهذه المُوالاةَ هي تفسيرُ شهادةِ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ومنها: آيةُ البقرة في الكُفَّار الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]؛ ذَكَر أَنهم يُحِبُّون أَندادَهم كحُبِّ الله، فدَلَّ على أَنهم يُحِبُّون الله حُبّاً عظيماً، ولم يُدخِلْهم في الإسلامِ؛ فكيف بمَنْ أَحَبَّ النِّدَّ أكبرَ مِن حُبِّ الله؟! وكيف بمَن لم يُحِبَّ إلا الندَّ وحدَه ولم يحبَّ اللهَ ؟!

ومنها: قولُه ﷺ: «مَن قالَ: لا إِله إلَّا اللهُ، وكَفَرَ بما يُعبَدُ مِن دونِ الله؛ حَرُمَ مالُه ودَمُه، وحِسابُه على الله»، وهذا مِن أَعظمِ ما يُبيِّنُ معنى «لا إله إلَّا الله» فإنَّه لم يجعلِ التلفُّظَ بها عاصماً للدَّمِ والمالِ، بل ولا معرفةَ معناها معَ لَفظِها، بل ولا الإقرارَ بذلك، بل ولا كَونَه لا يدعُو إلا اللهَ وَحدَهُ لا شريكَ =

= له، بل لا يَحْرُمُ مالُه ودَمُه حتَّى يُضيفَ إلى ذلك الكفرَ بما يُعبَدُ مِن دُونِ الله، فإنْ شكَّ أَو توقَّف؛ لم يَحْرُمْ مالُه ولا دَمُه. فيا لها مِن مسألةٍ ما أَعظَمَها وأجَلَّها! ويا له مِن بيانٍ ما أَوضَحَه! وحُجَّةٍ ما أَقطَعَها للمنازِعِ!»(١).[١]

[شرح ١] قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

هذه الآية فيها بيان أن المحبة من خصائص الرب ﷻ وأنها عبادة له سبحانه، وهي محبة مختصَّة غير المحبة الطبيعية التي يحبها الناس لأولادهم وأقاربهم ومأكلهم ومشربهم.

فهذه المحبَّة للعبودية، وهي الذل للمعبود والمحبوب، والخضوع له، وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ونحو ذلك، إنما هي مختصَّة بالله ﷻ، والذي يستحق كلَّ هذا هو الذي ينبغي أن يُحَبَّ محبةً خاصة خالصة تقتضي الخضوع له، والذل له، والقيام بأوامره، =

---

(١) ص٢٥٥-٢٥٧.

والطبعة المعتمدة في العزو إليها من «كتاب التوحيد» هي التي ضمن كتاب «الجامع للمتون العلمية» جمع عبد الله بن محمد الشمراني، ط٢ نشر دار الوطن.

.....

= وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده ﷻ.

وهذه المحبة إذا صَرَفَها لصنم أو وثن أو ميت أو ما أشبهَ ذلك، بحيث يعتقد فيه أنه جديرٌ بأن تُنفَّذ أوامره، ويُحلِّل ما أَحل، ويُحرِّم ما حرَّم، وما أشبه ذلك، كان هذا شركاً بالله ﷻ، وهذه هي المحبة التي فعلها المشركون مع أوليائهم، ومع معبوداتهم، فقد أحبُّوهم محبة تقتضي عبادتهم إياهم، في طلبهم البركةَ، والنصرَ على الأعداء، وشفاءَ المرضى، وما أشبه ذلك، فصار شركاً بالله، وصاروا بهذا مشركين، ومتوعَّدين بالعذاب، وعدم الخروج من النار ـ والعياذ بالله ـ لكفرهم بالله، وتنفيذهم مطلقَ هذه المحبة التي أحبوها لأوثانهم وأندادهم، حتى شَرَكوهم مع الله في العبادة.

أما المحبة المعتادة التي جَبَلَ اللهُ الناس عليها، مِن محبتهم مَن أحسن إليهم، فهي محبة اعتيادية، لا تقتضي العبادةَ لهم.

فمحبةُ الإحسان، أو محبة القرابة، أو محبة الطبع: كمحبة المأكل الطيب والشراب الطيب، وما أشبه ذلك ـ ليست داخلة في =

.....

= هذا الباب، وليست من باب العبادات، بل هي من باب العادات.

أما المحبة في الله، بأن يحبَّ الإنسانُ أحداً لله؛ لأنه من عباد الله، ومن الصلحاء؛ كمحبة الرسل والأنبياء وأهل الإيمان، فهذه قُرْبة وطاعة لله، وهي من العبادات التي لا تُصرف إلا له ﷻ.

فالمحبة أقسام ثلاثة:

القسم الأول: محبة مع الله، وهي محبة مختصَّة، لا تجوز إلا لله ﷻ.

القسم الثاني: محبة في الله، وهذه قُربة لله واجبة، فالحب في الله والبغض في الله من أوثق عُرَى الإيمان.

القسم الثالث: محبة طبيعية، وهي محبةُ من أحسن إليه، كمحبة أقاربه ومحبة المأكولات الطيبة والمشروبات، وهذه غير داخلة في العبادة.

وأما قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبَد من دون الله، حَرُمَ مالُه ودمُه، وحسابُه على الله ﷻ»، فهذا الحديث =

.....

= رواه مسلم في «الصحيح»[1] من حديث أبي مالك الأشجعي - وهو صحابي مشهور - عن أبيه طارق بن أَشْيَم أن النبي ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله»، وفي لفظ: «مَن وَحَّدَ اللهَ وكفر بما يُعبَد من دون الله»، وكلاهما عند مسلم[2].

وهذا يبين لنا أن معنى «لا إله إلا الله» هو التوحيد، ولهذا فالنبي ﷺ قال: «من وحَّد الله»، أو «من قال: لا إله إلا الله»، أي: من قال: إنه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، ووَحَّدَه بالعبادة، أي: اعتقده واحداً، وصَرَف له العبادة، أي: خصَّه بها دون كل ما سواه، فهذا هو التوحيد، وهو معنى «لا إله إلا الله».

ومِن لازمه الكفرُ بما يُعبَد من دون الله، ولذلك صرح به في الحديث فقال: «وكفر بما يُعبَد من دون الله» أي: تبرَّأ منه وأنكره، واعتقد بطلانه، وهذا هو التوحيد: أن توحِّد الله وحده، وأن تعتقد =

(١) مسلم: الإيمان (٢٣)(٣٧).

(٢) مسلم: الإيمان (٢٣)(٣٧).

.....

= بطلان عبادة غيره، وكُفرَ مَن عبد غيره ﷻ. وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالكفر بالطاغوت، معناه: البراءة منه، وإنكاره، واعتقاد بطلانه، وأن العبادة بحق لله وحده ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

قال مؤلف «تيسير العزيز الحميد» رحمه الله: وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى «لا إله إلا الله».

قال في «المسائل»: فإنه لم يجعل التلفظَ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفةَ معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرارَ بذلك، بل ولا كونَه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يَحرُم دمه وماله حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفرَ بما يُعبَد من دون الله، فإن شَكَّ أو تردد؛ لم يحرم مالُه ودمُه. =

.....

= قال: فيا لها من مسألة ما أجلَّها! ويا له من بيان ما أوضحَه! وحُجةٍ ما أقطعَها للمنازع[1]. انتهى

قلت: المقصود من هذا الكلام أن توحيد الرب ﷻ وإفراده بالعبادة يقتضي اعتقادَ بطلان عبادة غيره، والكفر بها، وإنكارها، والبراءة منها، ومن أهلها.

فمَن عَبَدَ اللهَ، ولَمْ يعتقد بطلانَ عبادة غيره، كأن يعتقد أن اليهود أو النصارى ليسوا على باطل، أو عُبَّاد الأوثان ليسوا على باطل، بل يقول: دعنا منهم، ولا يقول: هم على باطل، فهذا ما عَرَف اللهَ ولا عَبَد الله؛ إلى أن يعتقدَ بُطلانَ عبادةِ غيرِه.

فالله هو المعبود بالحق، وما سواه معبود بالباطل، سواء كان المعبود بالباطل نبياً أو ولياً أو ملائكةً أو غيرَ ذلك، فكلُّ مَن عبد غيرَ الله فعبادته باطلة، لأنه عبد غيره سبحانه، وترك الحقَّ الواجب عليه، فلا بد من الأمرين: من عبادة الله وحده، ومن الإيمان =

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» ص١١٨.

.....

= ببطلان عبادة غيره، وأنه سبحانه هو المستحق للعبادة دون كل ما سواه جل وعلا.

فلا بد من البراءة من عبادة غيره وإنكار ذلك، والبراءة من عابديها، حتى يكون موحِّداً خالصاً لله.

وهذا هو تمام التوحيد: كفرٌ بالطاغوت، وإيمانٌ بالله، وهذا معنى قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] أي: الكفر بأهل الطاغوت، فكفروا باعتقادها وآمنوا بأنها باطلة، والنصوص كلها تبيِّن هذا المعنى، وتُوجِّه، وتُرشِد إليه. والله الموفِّق.